الحسينيون لا يعتدون...

في الجوار، إلى الشمال من بلادنا، حيث تنتهي الصحراء القاحلة بخضرة الحضارة وسوادها، وأمواج الرافدين المتلاطمة، وجديد الإسلام الذي جمع البصرة بالكوفة، فالتقى الفقه باللغة، والتفسير بالحكمة، والرأي بالحديث، وأسس في حاضرنا لربيع العرب (حقاً، قبل أن يختطفه الأدعياء) الذي أطاح بطاغية العصر... تتشكل ظاهرة فريدة، وتشرق شمس جديدة من المغرب! في أداء مُعجز يحكي علامات آخر الزمان، وصور يوم الخلاص، والوعد بنشر العدالة وتفوُّق القيم حتى ترعى الشياه والذئاب تحرسها!

لقد عادت القداسة إلى الظهور كما لم تكن في يوم، وعاد الطُهر إلى التألق كما لم يظهر من قبل، وعاد الشعب إلى دينه واحتكم إلى قيم مذهبه، ورجع العراق إلى هويته التي جعلت أمير المؤمنين ينقل عاصمته من الحجاز إليه... فلتأمن بلادي سرباً، ولتهنأ عيشاً، ولتقرُّ عيناً... فالحسينيون لا يعتدون.

هذه الملحمة المنعدمة النظير التي سجلها العراقيون للسنة العاشرة على التوالي، ما يثبت أصالتها وينفي كونها حالة طارئة ومشهدا عارضا، في زحف مليوني يتقدَّم سيراً على الأقدام لمئات الأميال، ما زال يطَّرد، ليناهز هذا العام ثمانية عشر مليون نسمة، أخلى البيوت وأفرغ المدن في جُل العراق، ووجّه الشعب وصبَّه كالسيل الجارف تجاه كربلاء...

هذه الملحمة لها عطاءات وتحمل مؤشرات، هي في واقعها وحقيقتها إلهية ربانية، سماوية لا أرضية، بل عرشية لا خلقية، مما يعجزني ويعجز غيري عن الإحاطة بها، بل إدراك أدنى مراتبها... ولكن هذا لا يمنع استشراف عطائها السياسي ورسالتها الاجتماعية، ووجوب أن نقرأها بوعي ودقة، ونتمعن فيها بحكمة وكياسة، وبين هذا وذاك، أرى فيها ما يوفِّر مادة يمكن أن تُخرج بلدي من معضلة تاريخية ما انفكت تعاني منها وتتهددها!

إن ملحمة زيارة الأربعين التي يخطُّها العراقيون في كل عام تقدم ثقافة جديدة، تفتقدها المنطقة، بل لا وجود لها في العالم بأسره، وهي تحمل، على الصعيد العملي لا النظري، رسالة القيم الإنسانية والكمال البشري في ذروة تناهز المجتمع الفاضل، بعد أن عجز الساسة والقادة عن خلق المدينة الفاضلة! إن مجتمعاً يبلغ هذا المستوى من معاني الحب والسلام، والتكافل والتعاضد، والتراحم والتواد، والإيثار والإحسان، والبذل والعطاء، والجود والكرم، والتسامي على الفقر والعوز، وكل الجراح التي تثخنه، فيتوسل بالضيف ويرجوه أن يتناول من طعامه أو يتقبَّل خدمته... يكون قد انتقل إلى طور حضاري نادر في قاموس الإنسانية ومعانيها، طوى رذائل الغدر والخيانة، وتجاوز

العنف والقسوة، وجانب الجلافة والصلافة، ودفن كل الرذائل والقبائح في قبر بتكريت، أو أرسلها إلى حضيض يلاقي صداماً وبعثه، وبقاياه التي ترقص على جراح الشعب العراقي، وترفع صوره في الفلوجة والأنبار، ومن خلفها التي تعوي برجع صدى خطابه المنحط من طائفيين يترحمون عليه وتكفيريين لا يحجزهم عن الإرهاب والتفجير إلا العجز وعدم القدرة، وفي أول فرصة من المكنة ستراهم يتطايرون أشلاءً ويتوزعون قطعاً من نيران تتسابق إلى جهنم وبئس المصير. إن أهم ما يستوقفني ككويتي، بعد أن أسجل عجزي عن الإحاطة بعظمة المشهد كإنسان ومسلم وشيعي... هو الراحة والاطمئنان والسكينة لعودة هذا الشعب إلى قيمه التي غيبتها عنه حكومات الجور السابقة من شيوعية إلى عارفية إلى بعثية، بدأت في المد الأحمر بمطالبة عبد الكريم قاسم بالكويت، واستمرت في العهد القومي الناصري في معركة الصامتة، ثم في البعث القذر وغزوه الغاشم، وانتهاء بحمَّى التكفير ونذُر القاعدة التي تريد الإفساد في كل الأرض، وأدناها منهم وأقربها إليهم الكويت!

إن عراق اليوم يختلف عنه في الأمس، والأمس البعيد...

ولا أريد الحكومة والنظام السياسي الذي يتولى عراق اليوم، فطالما تغيرت الحكومات وانقلبت، ولا أريد الأحزاب والمنظمات الفاعلة والمتحكمة، فهي الأخرى لا يمكن الرهان عليها، إنما أريد الملايين التي تتزاحم، ولكنها لا تتعارك ولا تتقاتل، بل تتسابق على الضيافة والبذل والعطاء، وتتفنن في خدمة بعضها وإظهار المحبة والذلة للإخوان حتى تذر فئات نفسها لتغسل أقدام المشاة وتمسح أحذيتهم! مجسدين قوله تعالى «رحماء بينهم»، و«أذلة على المؤمنين»... فأنت أمام ظاهرة فريدة، وحالة وتر ليس لها نظير في الحاضر والماضي البشري، حريٌّ بمراكز الدراسات العالمية أن تلاحقها وتجري الأبحاث المعمقة والموسعة عليها، كما ينبغي للاستراتيجيين الكويتيين، وصناع القرار على المدى البعيد في هذا البلد، أن يدرسوها ويتحركوا تجاهها بذكاء.

وبدوري، اقترح أن تنسق حكومتنا في المستقبل، وتعد وتعمل للمساهمة الفاعلة في هذا النشاط الإنساني العظيم، عبر افتتاح مراكز خدماتية ومضايف شعبية على امتداد هذه المسيرة المليونية، باسم أمير البلاد والحكومة الكويتية ومجلس الأمة والهلال الأحمر والجمعيات الإسلامية السنية والشيعية على السواء، ليرى المواطن العراقي العادي الذي لقنته الأنظمة السابقة عداء الكويت وبغض الكويتيين، ان الكويت حاضرة معه في أهم شعائره، تساهم وترفد وتعين، ويشهد بنفسه بطلان الدعاية التي صورت له الكويت حاضنة للتكفير والإرهاب الذي يفجر ويقتل الأبرياء من أبنائها، ويمتهن مذهبها ومقدساتها. لا شيء ينتزع الأضغان ويخمد الثار ويطفىء الأحقاد كخطوات من هذا القبيل، ولا شيء يجتث أسباب العداء والتوتر بين الجارين، مثل أن يرى العراقي أخاه الكويتي معه وإلى جانبه في مثل هذا الموقف والمشهد العظيم.

لست أدعو لإلغاء وتعطيل سياسة الالتقاء مع الأحزاب العراقية بمختلف توجهاتها، ولكني أدعو لاستراتيجية تتجاوز سياسات هذه الأحزاب التي تحكمها مصالحها الخاصة، وتحركها أحياناً أجندات عالمية وإقليمية، إلى اتصال مباشر بالشعب العراقي، يخلق المودة والرحمة بيننا، ويقطع الطريق على أي تهديد يطولنا في المستقبل، في ظل قاعدة شعبية ستتمرَّد هذه المرة على أوامر قادتها، كما أبت شراء بضائع الكويت المنتهبة في المرة السابقة.

العراقيون اليوم ليسوا بحاجة لمساهمتنا في هذه المسيرة، والمنافسة بينهم والتسابق بلغ الذروة والقمة التي لم توفر إطعام الزوار واستضافتهم على موائد الشواء وأطباق المأكولات البحرية! ولا غابت عنها أي صورة وشكل من الضيافة يمكن أن يحدس بها كريم...

نحن من بحاجة إلى هذه المساهمة، لبناء ركائز علاقة جديدة تبني لجوار مصيري لن ينفك مع العراق، وجغرافيا هو قدرنا الذي يجب أن نتعايش معه، ونتطلع معه لأمان واستقرار.

جريدة القبس ٢٠١٣/١/٥

الدكتور خالد حسين الشطي